

بين الشعر والخطابة رؤية فلسفية

ط.د/ جوهري سعاد

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس

الشعر والخطابة: اتصال أم انفصال:

ركز جلّ النقاد العرب على مسألة مقارنة الشعر بالنثر في أفق إيجاد حدّ جامع مانع للشعر الذي عدّ علم العرب، لهذا جلّ المقارنات بين الشعر والنثر كانت في سياق مفهوم الشعر ولم تكن بنية البحث عن الخصائص الفنية أو السمات الأسلوبية التي تميز كل جنس أدبي، إذ يجعل النقاد العرب الشعر و النثر في مقابل بعضهما كقسمين مستقلين للكلام، فابن وهب يذهب إلى "أن سائر العبارة في لسان العرب إمّا أن يكون منظوماً أو منشوراً، والمنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام"¹، ولابن رشيق نفس الرأي إذ يقول: "كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور"²، كل هذه التصنيفات وأخرى تشير إلى أنّ الشعر والنثر قسيمان يندرجان تحت الكلام أو اللغة. وعلى العموم فإنّ جلّ التصورات في قضية الأجناس الأدبية في التراث النقدي تنطلق من تصور قدامة بن جعفر لثنائية المنظوم والمنثور فالمنظوم حسب ما يخص الشعر أمّا المنثور فيشمل الخطابة والترسل.

الشعر تخييل والخطابة إقناع:

يرى العرب القدماء نقادا وفلاسفة أن الشعر لا يهدف إلى الإقناع كما تفعل الخطابة لأنّ جماله يخاطب الوجدان والمشاعر "والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ولا يحلي الصدور بالجدال والمقايسة، وإنّما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقرّبها منه الرونق والخلابة وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون حلوّاً مقبولاً، ويكون جيداً وثيقاً وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً"³. يحيل هذا القول إلى أن الشعر العزيز في النفوس ليس ما كان بديع الترتيب ولا متقن النظم ولا داحض الحجة، فالشعر ليس للعقول بل هو حكر على العواطف .

ظهرت جهود الفلاسفة المسلمين للتفريق بين الخطابين الشعري والخطابي استناداً إلى بلاغة أرسطو وشعريته، إذ يندرج الشعر عند الفلاسفة ضمن نسق من الخطابات المنطقية في الرتبة الخامسة من المنطق بعد البرهانية والجدلية، المغالطية والخطابية، وهذه القياسات (الخطابات) تكون على مراتب عند ابن سينا "منها ما يقنع فيوقع ظناً غالباً وهو القياس الخطابي، وأمّا الشعري فلا يوقع تصديقاً، ولكن يوقع تخيلاً محمّكاً للنفس"⁴. ويفصل ابن سينا في هذا الأمر بقوله: "... الخطابة تنطلق كنص إقناعي من مقدمات تفضي إلى نتائج ، وتبنى أحياناً كثيرة على القياس للإبطال وضع أو حفظه، أمّا الشعر فيبني على التخييل الذي لا يستدعي الفكر والروية ... بل يعول على الإثارة دون تفكير للحث أو الردع"⁵ فالتخييل إذن هو محرك انفعالات المتلقي وسبيل للتأثير فيه لأنّه عملية إقناع المعاني في نفوس المتلقين ، الأمر الذي يكون التخييل في الشعر نظيراً للتصديق والجدل في الخطابة.

كان الفارابي أول من وضع حداً فاصلاً بين الخطابين الشعري والخطابي من حيث اعتماد الأول على التخييل والثاني على الإقناع ، ويربط الفارابي بين هذه الخطابات وغاياتها فيرى أن "الأقاويل الخطابية هي التي من شأنها أن يلتبس بها إقناع الإنسان في أي رأي كان ... والأقاويل الشعرية هي التي تركب من أشياء من شأنها أن تحيل في الأمر الذي فيه المخاطبة"⁶، لكن الفارابي يقر بأن الفرق بين الشعر والخطابة هو فرق كمي ونوعي، فهو يتردد إلى هيمنة وظيفة معينة على مكوناتها، ويكون تركيز تلك

الوظيفة ضروريا لتحقيق التواصل وتحصيل التصديق . لكن أمكن للخطابة أن تستعمل التقنيات اللغوية والأسلوبية والتخيلية الخاصة باللغة الشعرية لكنها ملزمة باستخدامها بقدر لا يخرج بالقول الخطابي إلى القول الشعري، كما أنّ الشعر قد يستعين ببعض المقومات الإقناعية الخاصة بالخطابة لكن دون إفراط في ذلك.

يجعل الفارابي عملية التبادل والاستعانة أمرا مشروعاً شريطة أن تظل الحدود الفاصلة بين الجنسين قائمة. فهو يدرك جيدا الفروق بينهما ويتضح ذلك بقوله: "والخطابة قد تستعمل شأنها من المحاكاة يسيرا وهو ما كلن قريبا جدا وواضحا مشهورا عند الجميع، وربما غلط كثير من الخطباء الذين لهم من طبائعهم قوة على الأقاويل الشعرية فيستعمل المحاكاة أزيد مما شأن الخطابة أن تستعمله غير أنّه لا يوثق به"⁷ وفي هذه الحالة قد يخرج القول الشعري إلى الخطابة.

لكنّ الخطابة بكونها صناعة إقناعية في حاجة دائمة إلى عناصر تخيلية لدورها الفعال في تحقيق الإقناع، ومن ثم يقع الاشتراك مع اللغة الشعرية في استخدام بعض وسائل الشعر منها التشبيهات والاستعارات وغيرها فالفارابي يرى الخطابة ملزمة باستخدام التقنيات اللغوية الأسلوبية والتخيلية الخاصة بالشعر شريطة أن يكون الأخذ قريبا وواضحا ومشهورا عند الجمع فلا يبعدها عن القول الخطابي، والأمر ذاته بالنسبة للشعر، وهذا يعني أن الفرق الكمي بينهما في طريقة استخدام اللغة وتقنياتها يصبح فرقا كيفيا. وعن طريق التخييل استطاع ابن سينا التفريق بين الشعر وغيره من الفنون كالنثر والخطابة فيقول "الشعر يستعمل التخييل والخطابة تستعمل التصديق"⁸، كما ووفي سياق حديثه عن اللغة الشعرية يفرق ابن سينا بين لغة الخطابة والشعر فالخروج عن الأصل منسوب للشعراء دون الخطباء وللغة الشعرية دون لغة الخطابة، والاختراع في اللغة مباح للشاعر محظور على الخطيب، واستخدام الاستعارات والحرص على استخدامها يكون من قبل الشعراء لا الخطباء، واستخدام الحيل اللفظية والمعنوية يخص لغة الشعر وحدها حتى أنها تصبح "صياغة شعرية"⁹، بهذا يجوز للشاعر مالا يجوز الخطيب فهو يمتلك البلاغة الشعرية و القدرات اللغوية ولا حجة تلزمهم ولا قيود عقلية تضبطه، وإنما استحسان الشعر على حد رأيه " فإنما استحسن في البلاغة من حيث هي بلاغة يراد بها التعجب، لا من حيث هي خطابة يراد بها تصديق الجمهور"¹⁰.

وعن استعمال الخطابة للمجاز وأساليب البلاغة يقول: "والمجاز في الأقوال الموزونة أليق من استعمالها في الأقوال المنثورة ومناسبتها لكلام النثر المرسل أقل من مناسبتها للشعر"¹¹، ويذكر أن التشبيه "نافع في الكلام الخطابي منفعة الاستعارة وذلك إذا وقع معتدلا وأما أصله فهو الشعر"¹²، يظهر إذن من خلال كلمتي "أليق" و"نافع" في كلام ابن سينا ان استخدام الخطابة للصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة يختلف عنه في الشعر، وهو في الثاني أقوى تعبيرا وأجدى محلا .

ومقصد ذلك أن الخطابة في نظر ابن سينا ملزمة باحترام المقاربة والمناسبة والوضوح في استعمال الاستعارات والتشبيهات دون أن تغرق في الابتذال والسخف، كما يجب أن تبتعد عن الغموض والإبهام، ذلك أن الاستعارات الغريبة والبعيدة من سمات اللغة الشعرية. ومن هنا يرى أنّ "الاستعارة في الخطابة ليست على أنّها أصل بل على أنّها غش ينتفع به في ترويح الشيء... كما تعش الأظعمة والأشربة بأن يخلط معها شيء غيرها لتطيب به أو لتعمل عملها فيروج أنّها طيبة في أنفسها"¹³، إذن لا بأس بالتخييل في الخطابة حتى ولو كان غشا وخداعا قصد الانتفاع به للتأثير وتقوية الإقناع. بمعنى أن اللغة الشعرية من استعارة ومجاز موكل إليها التخييل في القول الخطابي، على أنه لا يقصد جمهورا خاصا بل العامة منه.

أما ابن رشد فلم يخرج عما رسمه الفارابي وابن سينا لكن جهوده برزت في التفريق بين الشعر والخطابة من خلال ما يميز الشعر عن غيره من الخطابات وهو استخدام الألفاظ (الأقوال) بطريقة متفردة، وقد قسم ابن رشد الألفاظ واعتبر المغيرة من ضمن هذه الأقسام أشد نفعاً في الصناعة الشعر والخطابة، ويقتضي التغيير أن يستعمل لفظ ما في غير ما وضع له في الحقيقة والتغيير يرتبط بإفهام المعنى وإحداث الغرابة واللذة فيه، وهو يستثمر تقنيات المجاز فاللغة الشعرية عند ابن رشد يجب أن تتجاوز مستوى الإفهام الذي تحققه الألفاظ الحقيقية (في البرهان) إلى مستوى آخر هو اللذة والتعجب لأنها تحقق التخييل في الصناعة الشعرية.

فالألفاظ المغيرة عند ابن رشد هي التي من شأنها تحقيق التخييل، فإذا كانت أكثر تخيلاً فهي تخص الشعر وتلائمه، أما إذا كان التخييل أقلّ فيها فهي تصلح للخطابة "فالألفاظ المغيرة تتفاضل بالأقل والأكثر فيما تخيل في المعنى الواحد بعينه من الرفعة والخسة، لتفاضلهما في الغرابة، والصناعة الشعرية تستعمل من ذلك ما هو أكثر تخيلاً، وأما صناعة الخطابة فهي تستعمل من ذلك ما هو أقلّ وبمقدار ما يليق بها وذلك هو القدر الذي يفيد وقوع الإقناع"¹⁴.

ولا يتأتى للشاعر ذلك إلا باستخدام الأقوال المغيرة التي تتجاوز الدلالات الوضعية الثابتة للألفاظ لتتحرف عما هو مألوف وشائع في اللغة دلاليًا وتركيبياً، وفي هذا الموضع يقرن ابن رشد الخطابة بالشعر بكونهما صناعتين منطقيتين تعينان بالألفاظ عناية خاصة، لكنه في الوقت نفسه يفرق بينهما كون الخطابة لا توظف من الألفاظ المجازية إلا ما يجعلها مفهومة¹⁵، كما أن الفرق بينهما يكمن في درجة استعمالهما للتغيير وهو الخروج عن المألوف، فإذا تم ذلك فهو شعر وإلا فهو خطبة.

إلى جانب التداخل بين الشعر والخطابة من جهة التخييل والإقناع حسب هيمنة وظيفة كل منهما، تنبّه الفلاسفة إلى تقاطعهما في استعمال الإقناع من حيث هو طريقة مخصوصة في استخدام اللغة وفي استثمار العناصر الإقناعية. لأن الوزن خاصة ملازمة للشعر وتعضده المحاكاة والتخييل، مع ذلك يمكن للخطابة استعمال إيقاعات خاصة تتلاءم وبنيتها اللغوية والإقناعية بما يحقق الانسجام، ويتمثل ذلك فيما ينتظم الألفاظ والتراكيب وفواصل القول من توافق يكفل لها الاقتراب من الشعر فضلاً على تعميق آثارها الإقناعية في المتلقي¹⁶.

لقد قدم الفلاسفة المسلمون جهوداً عظيمة في بيان خصوصية الشعر (التخييل) وخصوصية الخطابة (التصديق) لكن اجازوا التداخل بينهما والانتفاع من بعضهما، حتى تكتمل صورة التأثير في المتلقي للشعر (التخييل) ليس فقط بإمتاعه بجودة الصياغة ولكن بجعله منصاعاً لمقتضى القول. (الاقتناع).

المراوحة بين الإقناع والتخييل :

على اعتبار أن الشعر والخطابة فرعين لأصل واحد هو علم البلاغة يحدد القرطاجني نقاط التقاطع والاختلاف بينهما، كما يبرز مواضع التشابه والاتفاق، فالصناعتان تشتركان في مادة المعاني، كما يجمعهما القصد وهو الأثر الذي يحدث في نفس المتلقي "حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده، أو التحلي عن فعله أو اعتقاده"¹⁷، لكنهما بلا شك يفترقان في وسيلة إحداث ذلك الأثر، فالشعر قوامه التخييل بينما الخطابة تروم الإقناع.

استمد القرطاجني جذور هذه الفكرة من جهود سابقه من الفلاسفة المسلمين خاصة فيما يتعلق بجوهر العملية الشعرية والخطابية. ، إذ أن التخيل أصيل في الشعر دخيل في الخطابة، والإقناع أصيل في الخطابة دخيل في الشعر، والقرطاجني استثمر هذه الفكرة فوجد أن ما كان : " من الأقاويل القياسية مبني على تخيل موجودة فيه محاكاة فهو يعد قولاً شعرياً، سواء كانت مقدماته برهانية أو جدلية أو خطابية أو يقينية أو مشتهرة أو مظنونة، وما لم يقع في ذلك بمحاكاة فلا يخلو من أن يكون مبني على الإقناع وغلبة الظن أو يكون مبني على غير ذلك، فإن كان مبني على الإقناع خاصة كان أصيلاً في الخطابة دخيلاً في الشعر سائغاً فيه، وما كان مبني على غير الإقناع مما ليس فيه محاكاة فإن وروده في الشعر والخطابة عبث وجهالة.¹⁸ ومن خلال هذا الكلام تتضح حدود التداخل الممكن بين الشعر والخطابة عند القرطاجني. فهو يجعل المحاكاة والتخيل فيصلاً بين الجنسَيْن .

يظهر مما سبق أن الفرق بين الصناعتين (الجنسين) يكمن في المحاكاة والتخيل. لكن الاتفاق يقع في المقصد والغرض من القولين (إقناعاً أو تخيلاً) وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام موقع القبول من النفوس حتى تتأثر لمقتضاه وتدعن له، لذلك ساغ للشاعر أن يستعمل يسيراً مما تقوم به الخطابة، وساغ للخطيب استعمال ما تقوم به الخطابة لكن القرطاجني يشترط القصد والاعتدال والتناسب حيث ينبغي "أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل المخيلة مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض ، وإن تكون المخيلة هي العمدة ، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مُقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة "¹⁹ . وهذا ما يؤكد أن هيمنة العناصر التخيلية في الشعر لا تلغي الوظائف الأخرى كالوظيفة الإقناعية، كما أن وجود أنساق إقناعية في الخطابة لا يلغي الوظيفة التخيلية .

لكن حمل النفوس على الإذعان ينبغي أن يكون بقصد في حال توسل الشاعر بآليات الخطابة فقد يعاب على الشاعر إذا كانت أكثر أقاويله خطابية لئلا يخرج من حدود الشعرية ويغرق في الخطابية والعكس، فإذا جاوز حد التساوي في كليتهما فجعل عامة الأقاويل الشعرية خطابية وعامة الأقاويل الخطابية شعرية كان قد أخرج كلتا الصناعتين عن طريقتهما، وعدل بهما عن سواء مذهبهما"²⁰ .

إن فكرة التداخل المقنن بين الشعر والخطابة عند القرطاجني تضع الحدود والفواصل بينهما حتى لا يستحيل جنس منها إلى آخر. مع مراعاة خصائص التفرد التي تميزهما عن بعض من جهة، ومن جهة ثانية مراعاة لطبيعة التلقي إذ يجب تحديد نشاط المتلقي بالانتقال من أسلوب إلى آخر لأن النفوس تحب الافتتان في مذاهب الكلام لما تحققه من راحة لأن السامع قد يشعر بالملل والضجر إذا طالت عليه أقوال من صنف واحد، ولا يريحه منها سوى اعتضادها بغيرها من الأقوال. لذلك " كانت معاونة الشيء على تحصيل الغاية المقصودة به بما يجري في ذلك جدواه أدعى إلى تحصيلها من ترك المعاونة وكانت المراحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية أعوداً براحة النفس وأعووناً على تحصيل الغرض المقصود"²¹ ، وبذلك تؤكد الأقاويل معنى تابعة لها، وتعضد مقصدها وتحقق فضلاً على غاية الإمتاع للشعر قدرة الإقناع والتأثير.

ولأن الإقناع هو جوهر الخطابة فقد سعى القرطاجني أن يجد له مبرراً ليكون عنصراً فعالاً داخل النص الشعري بأن عدّ الشعر المراح في معانيه خير من الذي لا مراحة فيه، ويضرب على ذلك مثلاً بشعر المتنبي الذي كان مراوحاً بين الإقناع والتخيل في قالب شعري بديع. وهي دعوة ضمنية للشعراء كي يتبنوا مقاصد يدافعون عنها ويسعون إلى تبليغها، وأن يراعوا في ذلك إرضاء

ذوق المتلقي واعتماد ما يصغي إليه ويفهمه. مما يعني أن الشعر يمكنه أن يقوم ببعض أدوار الخطابة وأن ينجح فيها دون أن يتخلى على خصائصه المميزة.

الهوامش:

- 1- أبو الحسين إسحاق، ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، ص117.
- 2- ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط3، المكتبة التجارية، القاهرة، 1964، ص 20.
- 3- أبو الحسن الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد البجاوي، ب.ط، ب.ت، ص100.
- 4- ابن سينا، فن الشعر من كتاب الشفاء، ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو، تح: عبد الرحمن بدوي، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص162.
- 5- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، 2011، ص54.
- 6- الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999. ص114 نقلا عن: الفارابي، إحصاء العلوم، ص64.
- 7- ينظر: الفت محمد كمال عبد العزيز، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، من الكندي إلى ابن رشد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص197، نقلا عن الفارابي، كتاب الشعر، تحقيق: محسن مهدي، مجلة شعر، مج 3، ع12، ص ص92/93.
- 8- ابن سينا، فن الشعر، ص161.
- 9- ينظر: ألفت محمد كمال عبد العزيز، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص198.
- 10- ابن سينا، فن الخطابة، تح: محمد سليم سالم، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، 1954، ص203.
- 11- نفسه، ص212.
- 12- ابن سينا، فن الخطابة، ص203.
- 13- نفسه، ص200.
- 14- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: محمد سليم سالم، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ص ص451/452.
- 15- ينظر: ألفت محمد عبد العزيز، نظرية الشعر عند الفلاسفة، ص ص183/184.
- 16- ينظر الأخضر جمعي، نظرية الشعر عند الفلاسفة، ص161.
- 17- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص20.
- 18- حازم القرطاجني، المنهاج، ص67.
- 19- نفسه، ص361.
- 20- نفسه، ص362.
- 21- حازم القرطاجني، المنهاج، ص361.